مع البائسين

عبد الحميد الديب

للأستاذ محمد رجب البيومى

كتبت بالرسالة (٩٥٨) مقالا عن الشاعر البائس المرحوم محمد إمام العبد ، وقد خطر لى أن أتبعه بمقال عن زميله الشاعر البائس عبد الحميد الديب رحمه الله ، وما زلت أترقب فرصة الحديث عن الشاعر حتى سنحت اليوم

وقد لاحظت أن الرجلين متشابهان فى أكثر من وجه ، فكلاهما بائس معدم حاربه الدهر فى رزقه ، ووقف أمامه يسد السبيل عليه إلى الحظوة والسعادة والجاه

وكلا الرجلين شاعر ملهم يصوغ خواطره وأشجانه مستلهما واقع حياته ، وظروف معيشته ، فتأتى قصائده حارة ملتاعة ، تنطق بالكآبة ، وتتسم باللوعة والقنوط

وكلا الشاعرين — رغم فاقته المدقعة — كان مجالا للفكاهة والتندر ، فتارة يبتدع النكتة المرحة ، والملحة العابثة ، وتارة تدور عليه القفشات البارعة ، ويتخذ منه أداة للترفيه ، والترويح فى المجالس والمنتديات

وكلا الشاعرين قد اضطر اضطرارا إلى التجارة بالشعر ، فكان يكتب القصيدة فى أى موضوع يملى عليه ، ويبيعها إلى المتشاعرين نظير مبلغ خاص يرتزق به ، ثم تنشر فى الصحف بعد ذلك ممهورة باسم المشترى المحتال

وكلا الرجلين — أخيرا — دميم الخلقه ، عبوس الوجه ، ممزق الثوب يحمل رائيه على السخرية والعبث به ، لولا ما يرفرف فى أضالعه من روح عذبة لطيفة ، تبعث فى محضرها أنواعا مرحة من الخفة والبشر والابتهاج

نشأ إمام فى كنف عبدين رقيقين ، ونشأ عبد الحميد فى ظل أسرة متوسطة بإحدى قرى المنوفية ، كان عائلها يتاجر فى القطن فأصاب ربحا جزيلا منه ، ثم عصف به سوء الحظ فتحول إلى المتربة والإدقاع ، وتقلب فتاه منه فى حالتيه ، فرفل فى مطارف النعمة والسعادة حينا ، ثم احترق فى لهيب الفاقة والحرمان حينا آخر . وقد كان هذا التناقض المفاجئ فى حياته ذا أثر هام فى شخصيته ، فقد أورثه تناقضا ملحوظا فى طباعه ، فكان سريع الغضب والرضا معا ، يضحك فجأة ويسخط فجأة ، ويمدح ويشتم ، ويتفاءل ويتشاءم ، ويلحد ويستغفر ، كل هذا فى آن واحد ومجلس واحد ، مما جعل أصدقاءه يتقبلونه ويألفونه دون أن يجدوا فيه موضعا للمؤاخذة والعتاب

وقد نشأ إمام العبد فى جيل لا يشجع الأدب والأدباء ، فالأمية فاشية ، والصحافة تسير بخطى متعثرة ، والقراء هم الأدباء أنفسهم ، إلا ما ندر من الأغنياء والموظفين ، لذلك سدت أمامه سبل العيش ولم يجد فى الشعر والأدب متجرا رابحا يدر عليه الرزق والمال !! ولكن عبد الحميد نشأ فى جيل يختلف عن جيل صاحبه ، فقد كثر عشاق الأدب والصحافة ، وأصبح الأدباء يرتزقون بثمرات أفكارهم ، وأسلات أقلامهم . وهنا نجد أنفسنا نواجه سؤالا هاما تتحتم الإجابة عليه ، فهل كان عبد الحميد الديب بائسا حقا ؟ أم أنه قد احترف البؤس احترافا ، وكان فى متناوله أن يصبح سعيدا محظوظا ، كأصدقائه من الكتاب والشعراء ؟ لقد سمعنا كثيرا ممن يكون عبد الحميد ، يتحسرون على شبابه الضائع فى أمة لا تقدر الأدب ، ولا تعترف بالمواهب ، فهم ينحون باللائمة على مجتمع يهمل النابغين ، ويحتقر المواهب والكفايات ! !

سمعنا ذلك ، وقرأناه مرات ومرات ، ولكنا قرأنا بمجلة الرسالة (٧٩٦) رأيا آخر للكاتب الفاضل الأستاذ عباس خضر ، يتهم به الشاعر باصطناع البؤس واحترافه ، ويدفع عن مصر ما ينسب إليها — ظلما — من احتقار المواهب والنبوغ ، وسننقل هنا خلاصة هذا الرأى الفريد ، ثم نعقب عليه بما نراه :

قال الأديب البارع الأستاذ عباس « إنما يأتى البؤس والحرمان من التعفف مع عدم القدرة على الارتزاق ، وقد كان الديب على عكس ما يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ، إذ كان من العفاة السائلين ، وكثيرا ما هيئت له أسباب العمل ، فقد وظف عدة مرات فى التدريس بمجالس المديريات ، وطالما دعى

إلى التحرير بالصحف والمجلات ، فكان يبدأ العمل ، وينقطع عنه بعد قليل ، وفى بعض الأحيان كان يحتال لأخذ المرتب مقدما ثم يذهب ولا يعود »

ويقول الكاتب الفاضل بعد كلام طويل يدور حول ذلك « هذه هى الحقيقة فى حياة عبد الحميد كما يعرفها خاطاؤه ، لا كما يحلو لبعض الناس أن يصورها ، فلم يكن البؤس يأتى إليه قدراً لا يد له فيه ، وإنما كان يصنع البؤس صنعا ، كان يحصل على المال فيبذره تبذيرا فى أدنأ الوجوه ، وأقذر البيئات ، ثم يجوع ويعرى ، يضيعه ، وكانت تعوزه الكرامة والإباء والعفة ، ليكون بائسا حقيقيا ، وكان لا يتحرج من أى وسيلة للاستفادة المادية ، ولا يتورع عن أى شتم ، ولم ينج من هجوه أحد ممن عرف سواء أعطاه أم منعه ، فعلى الناعين على هذا الوطن جحوده وإهماله النابغين من أبنائه أن يلتمسوا المثال فى غير عبد الحميد الديب ، ويعفوا التاريخ من التزوير والتزييف » .

هذا هو رأى الأستاذ عباس خضر ! ونحن نخرج منه بنتيجتين ، أولاهما أن المجتمع المصرى قد قدر الشاعر ، وفتح له أبواب الرزق فسدها بيديه . وثانيهما أن الديب قد اصطنع البؤس اصطناعا وكان فى مكنته أن ينعم بالمال والسعادة ، لو سلك الطريق القويم !!

ونحن نوافق على النتيجة الأولى ، فنبرئ المجتمع المصرى من احتقار المواهب ممثلة فى الديب ، فقد مهد للشاعر سبيل الرزق ، وأعد له الوظيفة اللائقة ، ومنحه الزملاء والأدباء ما يكفيه من المال لو اعتصم بالحكمة والسداد . هذا حق لا مرية فيه ، وعلى الناعين على الوطن إهماله وجحوده أن يلتمسوا المثال فى غير الديب كما يقول الأستاذ عباس — كأن يلتمسوه مثلا فى إمام العبد ، الذى نشأ فى جيل غير جيل عبد الحميد ، فكابد من الجوع والحرمان ما أورثه التعاسة والشقاء !!

أما النتيجة الثانية ، فسنخالف فيها الكاتب مخالفة صريحة ، فقد كان الديب ملتاث العقل ، لا يعى ما يصنع ، بل تضيق به نفسه ، فيترك الوظيفة ، ويهيم على وجهه دون أن يستمع إلى منطق أو تفكير سليم ، وهذا الذى لا يملك زمام نفسه . بل يهوى به الشرود والذهول إلى هوة مؤلمة ، فيمزق ثوبه وحذاءه ، ويتراكم الغبار على رأسه الأشعث ، ووجهه الشاحب ، وأسنانه الصفراء ، ثم يرسل الضحكات بلا مناسبة ، ويرفع الصوت عاليا دون مبرر ، ويبكى ويضحك فى آن واحد ، هذا الذى يفعل ذلك كله ، لا يكون ممتعاً بقواه العقلية حتى يصنع البؤس ويحترفه ، وكل ما يقال عنه أنه تائه شريد ، لا يعى مصلحته ، ولا يقدر نفعه ، فهو — إذن — جدير بالرحمة والإشفاق

لو كان الديب يصنع البؤس عامدا ، ويتخيره عن روية وتفكير ، ما دفع به الحظ التعس إلى مستشفى الأمراض العقلية ، فيقضى شهورا مؤلمة بين عاله الطبيعى المزدحم بالمرورين والمجاذيب ، ولكنه جن جنونا حقيقيا ، فانحدر إلى هذا المهوى السحيق

لو كان الديب يصنع البؤس عامدا ما قضى شهورا مريرة فى السجن ، تكتنفه الظلمات ، وتغشاه الغياهب ، ويجاور السفلة من المجرمين والأوغاد ، ويقول عنهم فى حنق وأسف :

بنو آدم من حولنا أم عقارب لها فى الحشا قبل الجسوم دبيب
لقد كنت فيهم يوسف السجن صالحا أفسر أحلاما لهم وأصيب

لو كان الديب يصنع البؤس عامداً ، ماقطع الليالى الباردة فى زمهرير الشتاء ، هائما فى الطرقات ، تتقاذفه الشوارع والأزقة ، وينهمر المطر غزيرا فوق رأسه ، وترتعش أضالعه ، وتصطك أسنانه كالقرور ، ولا يدرى أين يذهب ويلتجئ ، حتى يسمع صوت المؤذن فى الفجر ، فيعلم أن المساجد قد فتحت أبوابها للتائهين ، فيهرع إليها محتميا بجدرانها من السيول الدافقة ، ويجد نفسه مدفوعا إلى الصلاة بدون رغبة سابقة ، فيقول :

إذا أذنوا للفجر قمت مسارعا إلى مسجد فيه أصلى وأركع
أصلى بوجدان المرائى وقلبه وبئست صلاة يحتويها التصنع

لو كان الديب يصنع البؤس عامدا ، ما ترك دار العلوم دون أن يتم سنواتها الدراسية ، وقد كان قريباً من مؤهلها الذى يضمن له الهدوء والاستقرار ، دون أن يتساقط على الفتات

لو كان يصنع البؤس عامدا ، ما كابد هذه الشرور والأهوال ، ولكنه ذو عقل ملتاث يدانيه من المخاطر ، ويباعده عن الأمن والاطمئنان ، وأمثاله كثيرون ممن تضج بمآسيهم الحياة ، ولا يجدون الراحة فى غير المقابر الحالكة ، بعد أن يطوفوا طويلا بالسجون والمستشفيات ؟! أليس هو القائل :

جوارك يا ربى لمثلى راحة فخذنى إلى النيران لا جنة الخلد

فماذا بعد الحنين إلى الموت والفزع من الحياة ؟!

ولم يكن جنون الديب دائما ، بل كان متقطعاً يواتيه الفينة بعد الفينة ، وبذلك استطاع أن ينظم الشعر الرائع ، وأن يخلد ذكره بين الأدباء ، كما خلد المجنون الأكبر قيس حديثه بين العشاق

ونحن لا نستطيع أن نحكم على شعره حكما صادقا صريحا ، لأن عبقريته الفائقة تجلت فى أهاجيه المريرة اللاذعة ، وهى لم تنشر على الناس فى كتاب ، ولا يسمح من يحفظها من أصدقائه بتدوينها فى صحيفة أو كتاب ، لبشاعة ما تحمل من التجنى والإسفاف . فكيف نحكم عليها وهى لا تزال فى طى الكتمان ! على أنى قرأت كثيرا مما نظمه فى بؤسه وحرمانه ، فوجدته يتمتع بسلامة اللفظ ووضوح المعنى ، وصدق العاطفة ، وكان يصور شجونه كما ترتسم فى نفسه ، دون أن تتعمق به الفكرة أو يطير بجناحه الخيال ، وإنما يقتصر على الوصف الصادق ، لشعوره التألم ، وإحساسه الملتاع ، كأن يقول :

أفى غرفتى يارب أم أنا فى لحدى
ألا شد ما ألقى من الزمن الوغد
فأهدأ أنفاسى تكاد تهدها
وأيسر لمسى فى بنايتها يردى
ترانى بها كل الأثاث ، فمطفى
فراش لنومى ، أو وقاء من البرد
أرى النمل يخشى الناس إلا بأرضها
فأرجله أمضى من الصارم الهندى
تحملت فيها صبر أيوب فى الضنى
وذقت هزال الجوع أكثر من غاندى

أو يقول :

أرى الحوادث آسادا مقذفة ... على دون الورى تعدو وتقتتل
فكم تصوح عودى بعد نضرته ... وكم خبا فى دياجى عمرى الأمل
كأن حظى رحيق الدهر يشربها ... بكرا معتقة ، فالدهر بى ثمل
إذا تطلبت عيشى مت من كمد ... وإن تطلبت حينى يبعد الأجل
جوعان ، باعنة أربت على جلدى ... كأن ليلى بيوم البعث متصل

أو يقول :

أثله الدهر لا مال ولا سكن ... غنى تزيد على أنفاسه المحن
إذا سعى لجميع الأرض قبلته ... وإن أقام فلا أهل ولا وطن
مهاجر بين أقطار الأسى أبدا ... كأنه بيد الأرزاء مرتهن
كأنه حكمة المجنون يرسلها ... بغير وعى ، فلا تصغى لها أذن

هذه بعض النفثات الحارة التى نفس بها الشاعر عن صدره ، وهى قريبة من نفثات إمام العبد التى نشرنا بعضها بالرسالة . والشاعران كما يلاحظ القارئ متماثلان فى الغرض والمعنى والصناعة ، ولكن بيئة إمام الشعرية لم تكن تسمح بالابتكار والتنوع ، كما سمحت بهما بيئة الديب ، فقد وجد من شعراء عصره ونقاده ، عمالقة موهوبين ذهبوا بالشعر مذاهب مختلفة ، وفتحوا له آفاقا شاسعة رحبية . وطبيعى أن يتأثر بما يقرأ ويسمع ، لذلك نجده يجنح إلى الشعر التحليلى فى قصائده التى نشرها بالمقتطف ، كما يميل إلى الشعر القصصى فينظم منه قصيدتيه : « أحزان الأسد » ، « ووفاة القمر » وفيهما طرافة وأناقة فى المعانى والأساليب . وقد وفق توفيقا بارعا فى قصيدته « غنى الجار » فجاءت مثالا جميلا للتصوير الصادق ، الموشى بحلة زاهية من الأناقة والسلامة . وقد تغلغل الشاعر إلى أعماق جاره الثرى الشحيح فرسم كبرياءه وغروره ، وصور اشمئزازه المفتعل ، وتعاليه الوضيع ، وأضفى على أولاده من البهجة والأنس أفوافا ناضرة ، ثم انحدر به إلى أسفل دركات الإنسانية ، حين جعله يجثو ذليلا ضارعا ، أمام دريهمات حقيرة ، يستلها من جيب مفلس محتاج !! وقد بلغت خطراته الشعرية من الجودة ميلنا رائعا ، وهى جديرة بأن تكون ختاما طيبا لهذا المقال

قال المرحوم عبد الحميد الديب :

على القرب منى كنز قارون ماثلا ... ولما أنل منه سوى حرقة اليأس
تكبر فالألفاظ منه إشارة ... كأن عباد الله طرا من الخرس (1)
وإن نطق الفصحى فمن طرف أنفه ... كنفخة ذى جاه رفيع من الفرس
له أسرة كالروض زهرا وصادحا ... فمن شامها ألفى ملائك فردوس
بنون بنات كالورود ملابسا ... يمرون كالإصباح معتدل الطقس
يمر على سكناى فى ذيل بيته ... مرور عيون الموسرين على الفلس
صحوت على قصف الرياح وصوته
وما أحدث الطرق الشديد من الجرس
يطالبنى بالأجر فى غيظ بائع ... تصيده المحتال بالثمن البخس
وأسمعته صوت الدراهم فانحنى ... يقدم أعذار اليهود من الوكس
وأخضع فقرى كبره وثراءه ... وأى غنى للحر غير غنى النفس

أبو تيج ... محمد رجب البيومي

(١) الفت القراء إلى جمال التصوير فى هذا البيت